African Journal of Advanced Studies in Humanities and Social Sciences (AJASHSS)
المجلة الإفريقية للدراسات المتقدمة في العلوم الإنسانية والاجتماعية
Online-ISSN: 2957-5907
Volume 2, Issue 2, April-June 2023, Page No: 343-356
Website: https://aaasjournals.com/index.php/ajashss/index
Arab Impact factor 2022: 1.04 SJIFactor 2022: 4.338 ISI 2022: 0.510

الحرف المائية بتطوان خلال الفترة المعاصرة: جوانب من تاريخها وتحولاتها الراهنة

د. أكدي حسن[1*]، د. أشبون نور الدين[2]
[1]أستاذ باحث في التاريخ الاجتماعي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية فاس، سايس، المغرب
[2]باحث في قضايا التراث الثقافي المغربي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تطوان، المغرب

Water Crafts in Tetouan During the Contemporary Period: Aspects of Its History and Current Transformations

Dr. Hassan Akdi[1*], Dr. Noureddine Achboun[2]
[1]Researcher in social history, Faculty of Arts and Humanities Sais, Fez, Morocco
[2]Researcher in Moroccan cultural heritage issues, Faculty of Letters and Human Sciences, Tetouan, Morocco

[*]Corresponding author hassan.akdi17@gmail.com [*]المؤلف المراسل
تاريخ النشر: 2023-04-29 **تاريخ القبول:** 2023-04-21 **تاريخ الاستلام:** 2023-03-26

الملخص:
كانت تطوان عبر فترات التاريخ المعاصر موطن عدة حرف وأساس الدينامية الاقتصادية للمخزن، وقطاعًا حيوياً لتوفير المعاش للعديد من أبناء المجال التطواني، خاصة أولئك البسطاء الذين عبرها أعالوا أسرهم ووفروا احتياجاتهم الضرورية من أكل وشرب وغيرها.
ومن جهة أخرى، كانت الحرف المائية ولازالت إحدى أهم الصنائع التي تميزت بتقاليد وأعراف وأسماء ووظائف جعلتها في قلب الدورة الاقتصادية للحاضرة وتحظى ببنية تنظيمية خاصة ومتباينة عن الحرف الأخرى، ولذلك يحاول مقالنا هذا تقديم إحاطة تاريخية وسوسيوثقافية لبعض تلك الحرف المائية من خلال ما قدمته لنا بعض المصادر ومجهودات التقصي والبحث الميداني.

الكلمات المفتاحية: الحرف المائية، تطوان، الفترة المعاصرة، المدينة العتيقة، الموروث الثقافي.

Abstract:
Tetouan, throughout modern history, has been the home of several crafts and the foundation of the economic dynamism of the Moroccan treasury on the one hand, and a vital sector for providing livelihoods for many of the people of Tetuan, especially the poor who earned their living through it and provided their essential needs of food, drink, and others.
On the other hand, the water crafts were and still are one of the most important industries that have been characterized by traditions, customs, names, and functions that have made them the heart of the city's economic cycle and have a unique organizational structure that differs from other crafts. Therefore, our article attempts to provide a historical and socio-cultural overview of some of these water crafts through the sources and field research.

Keywords: Waterfront, Tetuan, Contemporary Period, Old City, Cultural Heritage.

المقدمة:

جاء في إحدى تقارير القنصل الإنجليزي الشهير جيمس دراموند هاي بخصوص تطوان قائلا: «وإذا استثنيت السهول المجاورة لتطوان تظل المنطقة في مجموعها غير ملائمة لمزاولة النشاط الزراعي، وذلك لسيادة التضاريس الصخرية والجبلية. ولذلك تخضع المناطق السهلية لاستغلال مكثف بالمقارنة مع جهات أخرى من المغرب، وتتميز بإنتاجيتها المرتفعة كما تمثل تربية الماشية النشاط الأساسي لسكان المنطقة.

وعلى العكس من ذلك، يحتل النشاط الحرفي مكانة هامة في المدينة وأحوازها إذ أثار انتباه النائب القنصلي كرين الانتشار الواسع لعدد العاملين في النسيج، ومدى الاتقان الذي كانت تصنع به الأسلحة النارية التي جعلها في المرتبة الأولى ضمن المنتجات الحرفية»[1].

تكشف لنا هذه الشهادة التاريخية أن تطاون كانت تحتضن عدة أنواع من الحرف، حتى كانت أهم مراكز الصناعة المغربية ومحترف رئيس لأهل الصنائع والعاملين بالأنامل، وهو ما يجعل ديمومتها ودورها الكبير آنذاك في تحريك الاقتصاد المحلي والوطني مرهون بعدة شروط، خاصة توفر المواد الأولية التي كانت تتوقف عليها مجمل الحرف والصنائع بالمجال التطواني.

أهداف الدراسة:

عادة ما يقع الباحثين في الخلط بين أهمية البحث وأهدافه. فالأهداف هي النتائج التي سوف يحققها الباحث عند انتهائه من البحث، والتي يمكن أن تشتق من فرضيات البحث أو تساؤلاته. أما أهمية البحث، فهي ما يمكن أن يترتب على نتائج البحث من فوائد علمية وتطبيقية.

وعلى هذا الأساس، تكمن جدة دراستنا في كونها تحاول تحقيق الأهداف التالية:

- التعرف على الموروث الثقافي التطواني المرتبط بالحرف المائية.
- الإحاطة بجوانب تاريخية من خلال مصادر محلية تهم نماذج من الصنائع التطوانية الأصيلة.
- استعراض بعض التحولات الراهنة التي لحقت الحرف المائية بمدينة تطوان.

أهمية الدراسة:

نظرا لمكانة الحرف المائية في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمجال الحضري بالمغرب خلال فترات تاريخية مختلفة، فإن تناول جوانب من تاريخها وتحولاتها يعتبر نبشا علميا لدفع الباحثين للكتابة حول مواضيع كانت غفلا وليست ذات أهمية، مقارنة بما كتب حول التاريخ السياسي والعسكري للمدينة، علاوة على لفت الانتباه للدور التنموي اليوم لهذه الحرف على مستوى المدينة العتيقة خاصة ومدينة تطوان بصفة عامة.

إشكالية الدراسة:

تتمحور إشكالية البحث حول محاولتنا لإبراز ما احتضنته المدينة تاريخيا من صنائع متنوعة كانت لها أهمية في الدينامية الاقتصادية والاجتماعية للمجال. ولهذا تتبادر لأذهاننا مجموعة من التساؤلات التي تحاول هذه الورقة البحثية الإجابة عنها:

- ماهي أهم الصنائع المائية التي انتشرت بالمجال التطواني خلال الفترة المعاصرة؟
- أين تبرز بعض التحولات التي طرأت على هذه الصنائع؟
- هل يمكن اعتبار هذه الحرف تراثا ثقافيا يمكن استثماره في العملية التنموية بالمجال؟

منهجية الدراسة:

تحقيقاً لما تفتضيه الإشكالية، اعتمدنا المنهج الوصفي التحليلي في تناول محاور الدراسة، واللذان

[1] - بن الصغير، خالد (1997)، المغرب وبريطانيا العظمى في القرن 19 (1856 – 1886)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة رسائل وأطروحات رقم 34، ط2، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، ص. 214 – 215.

يستندان في أساسهما على الملاحظة والتنقيب في النصوص التاريخية وتأويلها ضمن السياق الملائم، كما حاولنا الاستعانة بالتقصي الميداني للكشف عن تلك التحولات التي طالت نماذج من تلك الحرف المائية بمجال الدراسة.

المبحث الأول: نماذج من الصناعات المائية بحاضرة تطوان المتوسطية خلال القرن التاسع عشر

يستدعي الحديث عن تنظيم الحرف تناول أماكن تجمع ممتهني هذه الصناعات، وهنا يمكن التمييز بين الحرف المائية التي تتطلب بطبيعتها تجمع الحرفيين بمكان واحد كالدباغين أو الفخارين أو الصباغين مثلا، وبين حرف يجتمع حرفيوها في مواقف إلى جانب حرفيين آخرين كالقوادسية أو البيارة، وبين حرف يستلزم تفرقها عبر أرجاء المدينة كالحمامين مثلا، وكرف أخرى تنتشر أساسا بالبادية لارتباطها بالنشاط الزراعي كأمزال مثلًا، وبالتالي نجد أنفسنا ليس أمام تنظيم مشترك للحرف المائية بل تنظيمات تتباين من حيث شكلها وبنيتها من حرفة لأخرى لخصوصية كل حرفة[2].

كما ننبه القارئ، بأن المعلومات المتوفرة عن ممتهني حرف مائية بالمجال بالمصادر تظل قليلة جدا، ولا تسعف الباحث في معرفة عدة جوانب، وعليه سنحاول التقاط هذه المعطيات وتركيبها في سياق تاريخي تبرز لنا الحرفة ودرجة حضورها.

فمن بين تلك التي تعتمد في إنتاجها على مادة الماء حسب الأغراض والمجالات الموظفة فيها، نذكر الآتي:

1. **حرفة القوادسية أو القناويون***

لعبت حرفة القوادسي دورا حيويا داخل المجتمع المغربي لكونه ارتبط بتزويد المدن بالماء الشروب وكذا تصريفه للمياه المستعملة. ويقصد بهم أولئك المعلمين الذين يقومون بإنجاز القنوات والمعدات أو إصلاحها أو تغييرها في حالات انكسارها أو تعطلها. وقد اقتبست تسميتهم من القنوات والقواديس التي يعملون بها ولا تساعدنا الوثائق المتوفرة في تقديم عددهم بمدينة تطوان خلال فترة الدراسة، بحيث جل ما يظهر في الوثائق هم أرباب البصر[3]. ويفترض أن يكون القوادسي ملماً بعدة حيل هندسية وعارفا بكيفية قياس الضغط الطبيعي للمياه أو ما يصطلح عليه في عرفهم «**ميزان** الماء»[4].

فأمام هذا النقص في المعطيات التاريخية التي تخص هذه الحرفة بالمجال التطواني سنعمد إلى إبرازها من خلال إحدى الدراسات الجديدة في تاريخ الحرف[5] إذا تؤكد مجموعة من النصوص الغميسة والدراسات الحديثة التي اعتمدها الباحث فيما يتعلق بتقصيه عن جوانب تاريخية لهذه الحرفة بأن متعاطيها تميزوا بصفات عدة يمكننا اختزالها كالأتي:

- ارتباط القوادسي بشكل كبير بصناعة الفخار التي شكلت الأرضية لوجوده في مدن المغرب.
- صنعته اقتضت إلمامه بعدة تقنيات وإجراءات منها ضرورة درايته بأنواع القواديس وطبيعة إنشائها وكيفية ربطها وطرق التصرف أثناء وقوع الخلل عند عمليات التركيب، وكذا احترامه لقواعد عدم الإضرار بالغير أثناء ممارسة نشاطه بالأحياء أو المنازل.

---

[2]- محمد لقبايبي، محمد (2020)، **حرف الماء في تاريخ المغرب، بين التأصيل والتجديد. دراسة في تاريخ نماذج من الحرف المائية**. ط1، مراكش: مؤسسة آفاق للدراسات والنشر والاتصال، المطبعة والوراقة الوطنية، ص. 44.

*وردت هذه العبارة بشكل ملفت في العديد من الوثائق المخزنية التطوانية سبقت الإشارة إلى بعضها في إحدى دراستنا المرتبطة بتوضيح خصوصيات التوزيع المجالي لحرف المدينة. وفي حديثه عن مميزات نواحي باب التوت أشار أجنبي بأن هذا الفضاء احتضن انتشار المعلمين القوادسية متخذين أماكن بالفضاء " الموقف" ينتظرون أحد الزبائن لإصلاح ما يرتبط بصنعتهم. انظر:
(evocacion sentimental), Tetouan: Imprenta del Majzen, p, ~ Don luis Martinez (Junio 1949),Tetuan, 26

وفي إطار الضبط المفاهيمي يخلص الباحث توفيق محمد لقبايبي وعبر تنقيبه في عدة نصوص معجمية و تاريخية ودراسات حديثة أن القوادسي كحرفة لا ذكر لها في المعاجم اللغوية غير الربط الممكن بينها وبين تقنية القادوس، والذي يسمح بالقول إن هذا الشخص ما هو إلا ممتهن لصناعة القادوس، في حين ربطها بتركيب القواديس يجعلنا نعتقد بارتباط القوادسي بشخص القناوتي أي العارف بكيفية إجراء المياه الباطنية وصرفها...أيضا يؤكد أن صناعة القادوس حرفة تقنية تتمثل في إنجاز قوالب فخارية مهيأة لتمرير المياه جلبا أو تصريفا، والقناوتي الشخص المشتغل بتركيب القواديس في شكل قناة مائية، وهما حرفتان حظيتا بالاحترام. راجع: حرف الماء، المصدر السابق، ص. 119-120.

[3] - الرامي، خالد (2008)، النظام الأصيل لتوزيع الماء بمدينة تطوان 1862-1913. منشورات جمعية تطوان أسمير، تطوان: مطبعة الخليج العربي، ص.176.

[4]- النظام الأصيل، المرجع السابق، ص.177.

[5] - حرف الماء في تاريخ المغرب. المرجع، السابق.

- وجدت حرف كانت تكمل مهمات القوادسي منها الفلاسة أي أولئك الممتهنون لعمليات البحث عن أشياء كانت تسبب خنق القواديس، والكنافة أي المختصون بتصريف المياه المستعملة[6].
- ولممارسة مهنته كانت للقوادسي مجموعة من الأدوات البسيطة أبرزها:
- القصبة الرومية كان يوظفها في تسريح القادوس المختنق بالأوحال والنفايات وغيرها.
- الحبل يتم إدخاله للقناة أو القادوس بعد ربطه بمقدمة القصبة، ثم إخراجه منه. والهدف إزالة الكدان الذي يترسب بجوانب القادوس.
- المغرفة تستعمل لغرف الأوحال من البالوعات.
- القضبان والأسلاك المعدنية، الدلو، الفأس، الملاسة، والمنقاش[7].

على العموم فرغم دورهم الكبير فإن حرفتهم ودخلها المالي المتواضع لم تسمح لهم باحتلال مكانة هامة ضمن النسيج الاجتماعي، إذ غالبيتهم عاشوا في ظروف اقتصادية واجتماعية صعبة، وهو ما كانت تعكسه حنطتهم، إذ لم يكن باستطاعتهم مثلا بفاس القيام بالطقوس والاحتفالات التي كانت تميز عددا من الطوائف الأخرى[8].

2. حرفة حفاروا الآبار أو البيارة

يصعب على الباحث في موضوع نشأة حرفة البيار أن يحدد بالضبط متى ظهرت هذه الحرفة بالمغرب، لكون ما وصل حولها من إشارات في المصادر التاريخية غير واضحة، ومن تم لا يمكن الحسم في أصولها بالمغرب، ولا كيفية تعلمها وتعليمها والشروط الواجب توفرها في العاملين بها. لكن ما يمكن قوله في هذا الصدد، هو إمكانية تتبع تلك الإشارات التي تأتي عرضا في المصادر التاريخية التي وجب أخذها بعين الاعتبار، خاصة وأننا نجد بعض الكلمات المفتاحية التي تسهل على الباحث تكوين ولو صورة صغيرة عن هذه الحرفة و حيثياتها[9].

وقد اكتسى حافروا الآبار بتطوان خبرة كبيرة في حفر الآبار وطبها بالبناء، وفي هذا الصدد يتحدث « جولي » بكثير من الإعجاب عن شخص كان يمارس حرفة حفر الآبار بالمدينة يدعى:(*Bou loulou*) توفي سنة 1900م، وقال إنه كان يمارس فناً وليس مجرد حرفة. فعمله لا يقتصر على الحفر بل أيضا الاختبار والنصح، عن احتمالات وجود الماء قرباً أو بعداً عن سطح الأرض وذلك باستعمال وسائل وموازين خاصة لذلك، وهو ما يعرف بعلم الريافة[10]، ومن هذه الأدوات التقليدية التي استعان بها في حرفته، الفأس والعتلة، وكل ما من شأنه يسهل اقتلاع الصخور كالأوتاد، وغالبا ما كانت فئة حفاري الآبار تتألف من ثلاثة أو أربعة أشخاص، يتطوع أحدهم لممارسة عملية الحفر، بينما يسحب آخر مخلفات الحفر بالاعتماد على دولاب خشبي أو حديدي يلف حوله الحبل في الأعلى بينما يكون الدلو أو القفة في الأسفل، ثم يفرغ ما يتم سحبه من أتربة بجانب حفرة البئر حيث يشكل تراكمها حاجزا أمنيا يحيط بالبئر. ويستمر الأمر هكذا إلى أن تظهر المياه، وبعد تذوقها والاطمئنان لجودتها، يقوم البيار بإحداث فجوات جانبية أو غيَّابات وهي المصدر الأساسي لتغذية البئر بالماء وضمان عدم انحباس العيون المغذية للبئر لسبب من الأسباب

أما صيانة البئر، فيمكن أن تكون من اليوم الأول لظهور الماء، حيث يتم تجصيص حواشي البئر بمواد معينة من الأعلى إلى الأسفل تفاديا لحالات الردم الممكنة خصوصا إذا كانت التربة هشة وغير متماسكة، أما إذا كان ماء البئر يتعكر بسرعة فيتم وضع بعض الحصى والرمال على مستوى القعر[11].

ومن الدلائل التاريخية على وجود هذه الفئة وجود بعض الرسوم العدلية التي تبرز أنه من العوائد التي ذأب عليها بعض من أهل الإحسان بالمدينة الإيصاء في أعمالهم الخيرية بالوقف على حفر الآبار في المدينة ونواحيها للتقرب لله «**الربع** من الثلث يشترى به المماليك ويعتقون عنه، والربع تحفر به الآبار في المواضع المحتاجة لذلك خارج تطوان في الطرقات»[12].

---

[6] - حرف الماء في تاريخ المغرب، ص. 128-133.
[7] - حرف الماء في، المرجع السابق، ص. 133-134.
[8] - حرف الماء في، ص. 136-137.
[9] - حرف الماء في، ص. 102.
[10] - النظام الأصيل، المرجع السابق، ص. 174 – 175.
[11] - توفيق محمد لقبايبي، حرف الماء، المرجع السابق، ص. 106
[12] - رسم عد لي بتاريخ 1233ه/1817م، داود، محمد (2016)، **التكملة ذيل لكتاب تاريخ تطوان في خطط المدينة وسكانها وحياتها**

3. حرفة السقاية أو الكرابة[13]

من خلال دراسة (Joly) السالفة يؤكد أن عددهم سنة 1912 كان أربعة مغاربة من أصول مراكشية أو سوسية اختصوا في سقي الناس وتزويد المنازل بالماء من النهر المجاور للحاضرة، موظفين أدوات بسيطة لتحيقق طلبات الزبائن[14].

فكان من الطبيعي في مدينة معروفة بكثرة عيونها المائية أن ينتشر فيها السقاءون يبيعون الماء العذب إما بالأسواق أو نقلها للزبائن بمنازلهم، بل من المناظر التي كانت مألوفة بالمدينة رؤية حمار أو مجموعة حمير يحمل كل واحد منها أربعة قلل صباغية أو أربعة براميل خشبية، يطوف أصحابها بمختلف أحياء المدينة، يبيعون الماء لمن يريده، وكانوا يأتون بذلك الماء إما من نهر بوجداد، وإما من بعض العيون البعيدة التي اشتهرت بجودة مائها، فيشتري منهم ذلك الماء من يستعذبه للشرب أو صنع الشاي، لأنه أخف وألذ من ماء العيون التي بالمدينة[15]. وممتهني هذه الحرفة كان يطلق عليهم الكرابة، وللتدليل عليهم نقتبس نصاً تاريخياً مقتطفاً من سيرة الشيخ أحمد بن عجيبة جاء فيه: «**فكان** بعض الكرابين يعطيني القربة ويملأها لي بالماء ويعلقها لي في عنقي ويعطيني الشنائيل التي تصوت ويعطيني خنشة للفلوس، ثم نخرج نسقي، فإذا فرغت رجعت إليه يُعمرها مرة أخرى. كنت أفعل ذلك أيام الموسم حين يتزين الناس لعيدهم ويجلسون في الطرق فأطوف عليهم بقربتي نسقيهم، فإذا قالوا لي هل بالفلوس أم لا؟ أقول لهم: بل بالفلوس. ولا تظهر لهم شيئاً من الزهد فإذا قبضت شيئاً دفعته لصاحب القربة، فكان يخرج بذلك. فعلت ذلك أسقى أياماً مادمت في تطاون»[16].

ويستشف من النص أن السقاة بالمدينة كانوا يروجون لمياهم بوسائل منها قربة الجلد، وكيس لجمع المال، ووسيلة معدنية تحدث صوت، وكوب وغيرها[17]. وليس هناك فكرة واضحة عن المبالغ التي كان يتقاضاها السقاة بالمجال.

ولاستجلاء الصورة عن الحرفة أكثر فإن أحد الدارسين في بحثه[18] يصنفهم إلى صنفين:

- الكراب الذي يبيع الماء للمنازل والدور والمحلات التجارية والمقاهي وغيرها. ويحمل هذا الشخص قربة كبيرة مصنوعة من جلود الأبقار، وبحسب الطلب كان يحمل عدة قرب على دابته، وكانت لهذا الصنف من الكرابة أهمية كبيرة في جلب الماء إلى سكان الأحياء في المدن الكبيرة العتيقة.
- الكراب الذي يحمل قربة على كتفه مصنوعة من جلد الماعز دون نزع شعره، وغالبا ما تكون سوداء اللون، يطوف بها الأسواق والمواسم وأماكن التجمعات البشرية ليسقي العطشى من المارة، ويمكن التمييز في هذا الصنف بين نموذجين:
  - الكراب البدائي: ويتميز بلباسه الرث ولا يعتني بشكله وبأدوات عمله، وغالبا ما يتواجد بأسواق البادية وفي بعض التجمعات البشرية، كما أن أدوات اشتغاله بدائية، وهي عبارة عن جرار وأكواب فخارية.
  - الكراب المحترف: ويتميز بلباسه الأنيق، إذ يعتني كثيرا بمظهره الخارجي، ومن أدواته طاسات نحاسية، ناقوس، ولباس موحد اللون...

ومن الأساليب الشائعة عند الكراب لعرض بضاعته، فإنه كان يوظف لغة تخبر الزبون بوجوده ومنها، الما لله واللي عطا شي لله، مول الجود يجود، الما في سبيل الله يرحم مول السبيل، ها شريبة د الما،

الاجتماعية. مراجعة وتحقيق وإضافات، حسناء داود، منشورات جمعية تطاون أسمير، ط1، تطوان: مطبعة الخليج العربي، ص.460-461.

[13] - للتعرف على المعنى المعجمي أو اللغوي يرجع إلى توفيق محمد لقبايبي، حرف الماء. المرجع السابق، ص. 193-195.

[14] - Joly, A (1906), l'industrie à Tétouan, Paris: Archives Marocaines, V 08, pp. 249-250.

[15]- التكملة، المرجع السابق، ص.201.

[16]- ابن عجيبة، أحمد (2013)، فهرسة العالم الرباني الكبير، سيدي أحمد بن عجيبة الحسني. تقديم وإعداد، عبد السلام العمراني الخالدي العرائشي، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، ص. 56.

[17] - لمعرفة تفاصيل مهمة حول تلك الأدوات يرجع لتوفيق محمد لقبايبي، حرف الماء، المرجع السابق، ص. 212-214.

[18] - توفيق محمد لقبايبي، حرف الماء، ص. 207-208.

برَّد يا عطشان...[19]

واليوم بات الكراب مرادفا للفقر والتهميش وأمسى ماؤه غير مرغوب فيه من طرف الذين يتحرون جودة ونقاوة المياه التي يشربونها، وهو ما جعله مجرد مكون جامد من مكونات التراث اللامادي بالمغرب[20].

ومما وجب التنبيه له هنا، كذلك أن أهالي أحواز المدينة الذين اعتمدت حياتهم على الفلاحة كانوا يطلقون على المسؤول على توزيع وترشيد مياه السقي بين الساكنة لسقي أراضيهم بالسقاء[21].

4. **حرف مرتبطة بالحمامات العمومية***

عجت المدينة بحمامات كانت لها وظائفها بحياة أهل المدينة حيث عدت مرفقا اجتماعيا ضمن مجال العمران، وتحتل موقعا بارزا في خريطة المدينة إلى جانب المسجد الجامع الذي يحتل مركز المدينة الإسلامية، إذ يعتبر الحمام من المرافق الأساسية ومجالا لإزالة الأوساخ، وهو لا يقتصر على حدود النظافة وإنما يتجاوزها إلى حاجات وظيفية ترتبط بالشريعة الإسلامية المبنية على التطهير[22]، غير أن سريان مهامها بالشكل الجيد كان يقتضي وجود حرفيين لهم ارتباط بهذه المنشآت المائية، يختص كل واحد منهم بدور معين وبمهمة محددة حسب تخصصه وحسب الحرفة التي يستطيع أن يقوم بها داخل الحمام. ومن هؤلاء الأشخاص من تكون مهمته أساسية بحيث لا يمكن أن يسير نظام العمل بالحمام بدونها وأخرى ثانوية ترتبط برغبة صاحب الحمام[23] لذلك وجد بالحمام التطواني هؤلاء الحرفيون:

أ. الجلاس أو الكلاس

هو الشخص الذي يتسلم من المغتسلين أجرة غسلهم، وتدفع دائما بعد الغسل، وهو الذي يتولى حراسة ثياب المغتسلين، ويحفظ أماناتهم، وهو المشرف على شؤون الحمام مادام به الرجال، وقد يكون هذا الجلاس هو نفسه المكتري للحمام، وقد يكون عاملا بأجرة كبقية الخدام.

ب. **الحكاك أو 'الكسال أو الطياب'[24]**

قد يكون واحدا، أو يتعدد، وهو الشخص الذي يجعل الماء البارد أو الساخن في القباب أو السطول، ويوصله إلى كل مغتسل في محل غسله، وبعض هؤلاء الطيابين يقوم بخدمة المغتسل، فيغسل المحل الذي يغتسل فيه، وقد يباشر بعضهم غسل جسم الشخص، وحك جلده بيديه الخشنتين، فيخرج ما فيه من وسخ، ويدلك الأعضاء دلكا، فتلين العروق والعضلات، وينشط الجسم ويستريح، ولبعضهم في ذلك قواعد ومهارة، ويأخذون على عملهم هذا أجرة خاصة. وفي الغالب يكون للحمام طيابون متعددون يباشرون عملهم بالمناوبة. ومن الشروط التي لابد أن تتوفر فيه الحذق والتفاني في العمل حتى يكون متمكنًا من أصول الحرفة، إضافة لحسن الصورة والشمائل اللطيفة والصوت الرخيم ولطف الأيدي ونعومتها لأنه لطالما يلامس أجساد المترفين التي لا تألف إلا الناعم من الثياب وغيرها من الصفات، كذلك يجب أن يكون ذا أخلاق عالية في تعامله مع الزبائن لأنه لا يجوز له أن ينظر إلى عورة الزبائن أو لمس شيء منها دون

---

[19] - حرف الماء، المرجع السابق، ص. 211-212.

[20] - حرف الماء، ص. 215.

[21] - البقالي، محمد عبد الحفيظ (دون رقم الطبعة)، سمسة، ذكريات من تاريخ قرية. تطوان: (دون وجود إسم مؤسسة الطبع والنشر)، ص.22 وص95 و ص 99.

*يوجد منها بالمدينة ما هو خاص بالرجال وأخرى للنساء، وبعضها يكتري لصالح عائلات تطوانية. أنظر:

- *Tetuan (Evocacion…)* , op cit, P:32

وكذلك، الأندلسي نضار (2020)، تطوان بين المغرب والأندلس، تشكيل مجتمع مغربي أندلسي في القرنين 16 و17. ط1، تطوان: منشورات جمعية دار النقسيس للثقافة والتراث، ص. 76-78. وأيضًا صاحب التكملة، المصدر السابق، ص.168-171. وكذا ص.533-534.

[22] - اجميلي، حميد (2018)، المسألة الديموغرافية بالمغرب الأقصى، مؤشرات إحصائية حول الاقتصاد والتمدين خلال العصر الوسيط ق 6-8ه/12 – 14م. ط أكتوبر، الدار البيضاء: منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، ص. 155-156.

[23] - توفيق محمد لقبايبي، حرف الماء، المصدر السابق، ص. 367.

[24] - أو الطيابة: خدمة الحمام، لأنهم يطبخون ماء الغسل. أنظر، الرهوني أبو العباس أحمد (2012)، عمدة الراوين في تاريخ تطاوين. تحقيق جعفر بن الحاج السلمي، ط2، تطوان: منشورات جمعية تطاون أسمير، مطبعة الخليج العربي،ج 3، ص.207.

حائل، مادامت هذه الحرفة هي مصدر رزقه[25].

وفي أحد المؤلفات الأجنبية لكاتب مجهول نجده يقدم وصفا دقيقا لهذه الفئة من الكسالة محاولا تسليط الضوء على عدة تفاصيل تهم الحمامات التطوانية من الداخل ومما جاء فيه «**هناك** أربع أمكنة إثنين باردين، والأوسط دافئ والأخير حار جدا، ومن مهمات هؤلاء الكسالة إدخال المتحمم للفضاء المناسب من أجل أخذ قسط كاف من الحرارة والبخار، بعده يقومون بدلك جسد الزبون لتمتيعه بنوع من الراحة والاستجمام وتطهير البدن. وإلى جانب هؤلاء أيضا وجد حلاقون دورهم حلاقة لحى ورؤوس المتحممين الراغبين. أضف إلى أنه من العادات المرافقة بعد الاستحمام تقديم شاي وسبسي للزبون للانتشاء.

النساء كن يجعلن من يوم السبت عادة للاستحمام وحين يغادرن البيت أو بعد انتهائهن من الاستحمام يتلحفن بلباس تقليدي عريض ينم عن طابع الحشمة، ولعل طابع المحافظة يبرز بشكل بارز بالمدينة حيث نجد بعض الحمامات يضعن شعار: فقط للنساء«[26].

ج. الحلاق

يعتبر من العمال الأساسين في الحمامات، ولم يكن عمله يقتصر على قص الشعر وحلق الذقن، بل كان يقوم بالعديد من المهام التي جعلته من أكثر الأفراد الذين يحتاجهم العامة في الحمام. فعلاوة على ذلك كان يقوم بالحجامة والختانة وبعض العلميات الجراحية البسيطة كمعالجة الكسور أو الفدع وغيرها. وعلى الحلاق أن يتصف بالرشاقة عارفا بأمور الحلاقة والحجامة، وألا يأكل ما يغير نكهة فمه كالبصل والثوم حتى لا يتأذى الناس من رائحته عند الحلاقة، وأن يقوم باستخدام أمواس جديدة جيدة من الفولاذ[27].

د. 'الججاج أو الفرناتشي' أو الوقاد

هو الشخص الذي يوقد النار في الحمامات التي تنشأ من الحطب الغليظ، فهي لا تحتاج للعمل المتتابع، إذ يتم رمي بعض الخشب في الفرناشي ويعود ليقوم بنفس الأمر بعد ساعات[28] كما كان من مهامه الحفاظ على سلامة السكان من الروائح الكريهة حيث كان يلزمه المحتسب بألا يستخدم محروقات ينتج عنها روائح كريهة تضر بالسكان المجاورين للحمام، وحرصا كذلك على طهارة المياه و التخلي عن كل ما من شأنه أن يغير طهارة الماء وصفائه[29] ويبرز هؤلاء الحرفيون المرتبطون بمرفق الحمام في إحدى نصوص الحوالات الحبوسية التطوانية وبالضبط ضمن مستفاد الحاج عبد المالك أمحلي « الحمد لله صير من المجتمع...في شراء ثمانين حملا من الحطب التي أصرفت في شهر المحرم ثمنها هذا 110.

ثم في صائر المياومة من أجرة الجلاسة والطيابة والزيت لحساب 2 عن كل هذا 0082...وأخذ الجلاس أجرته عن ذي الحجة 0004 »[30].

على أي تنوعت الفئات العاملة «الحمايمية أو الحمامون» بهذا الفضاء الصحي حيث تراوحت أدوارهم ما بين الخدمة والتجارة، إذ مارس بعضهم فيه بيع المشروبات الساخنة وبعض مستلزمات التنظيف كالغاسول والصابون ...، كما شكلوا فئات مهنية ذات دخل محدود وضعيف لم يسمح لغالبيتهم الترقي في مستوى معيشته.

من ناحية أخرى، يبدو من تعدد الحمامات بالمجال التطواني أن عادة الاستحمام كانت سلوكا اجتماعيا اعتياديا جرت به العادة سواء بالمدينة أو البادية المغربية، كما كان للحمام دور هام في العديد من المناسبات. كما اتضح بأن الحمام وفر العمل لمجموعة من الأشخاص، وكان يقدم خدمات صحية[31] وفضاءً لممارسة

---

[25] - حرف الماء، المصدر السابق، ص. 370-371.

[26]- Anonimo(1860), Brève Escursion por el Imperio de Marruecos, en que se describe su territorio y las costumbres de sus habitantes, Málaga: Imprenta del avisador Malagueño. p. 35.

[27] - حرف الماء، المرجع السابق، ص. 371.

[28] - التكملة، المرجع السابق، ص.166-167.

[29]- حرف الماء، المرجع السابق، ص. 372-373.

[30] - وثيقة بتاريخ 1214ه/ 1799م، حوالة زاوية أبي جيدة، ص. 15، بمندوبية الأوقاف بتطوان.

[31] - حرف الماء، المرجع السابق، ص. 381.

البعض لأنشطة هامشية وفرت لهم موردا للعيش كالزبال، الغواسلي، صانع القباب...

المبحث الثاني: نماذج من التحولات تعيشها بعض الحرف المائية بالفترة الراهنة

5-الحرف الجلدية

تتموقع الحرف الجلدية بمركزين اثنين، وهما المدينة العتيقة خصوصا في دار الدباغ الموجودة بباب المقابر وحي الخرازين، ومجمع الصناعة التقليدية التابع للمديرية الإقليمية للصناعة التقليدية بإقليم تطوان. وتضم هذه المراكز العديد من الحرف الجلدية كما سبق جردها في الجدول 38. يمتهنها حرفيون متوسط سنهم هو 52 سنة، حيث أن الفئة الشابة تبتعد عن ممارسة هذه الحرف نظرا لمجموعة من الأسباب سنوردها لاحقا، وهي مشتركة بين مجموعة من الحرف الفنية الأخرى.

يزود الحرفي التطواني في مجال الجلد السوق الوطنية بمنتوجات عديدة كالبزاطم والحقائب والديكورات الجلدية والبلغة بمختلف أنواعها كما سنرى لاحقا، من أكثر المدن التي تستقبل المنتوجات الجلدية التطوانية نجد مراكش والدار البيضاء وفاس والرباط. ونجد أن عددا كبيرا من الباحثين في مجال التراث الثقافي اللامادي بتطوان، قد أقصوا الصناعات الجلدية من بحوثهم وابقوا حرف أخرى أقل أهمية منها. فصناعة الجلد في تطوان لها تاريخ عريق والدليل على ذلك هو توفر المدينة على أربع دور الدباغة، حيث كانت صناعة الجلد تحتل الصدارة من بين سائر الصناعات الأخرى، والحرفيون ينقسمون إلى دباغين وخرازين وكل دار للدباغة تتوفر على معلم دباغ، وعشرة من الصناع، وعشرة من المتعلمين. فالدباغون كانوا ينتظمون كسائر الطوائف الحرفية في إطار حنطة على رأسها أمين. كما ازدهرت الخرازة بتطوان، حيث تميز الخرازون بالمهارة والإتقان والجودة، وخاصة في صناعة البلغة والريحية التي كانت تصدر للجزائر ومصر[32].

أ- فضاء دار الدباغ

من المؤشرات التي توحي بتواجد نسيج حرفي يرتبط بالصناعات الجلدية لدى المجموعات البشرية بالمغرب، هو وجود ما يسمى بدار الدباغ، وهو المكان التي تنقى وتدبغ وتجهز الجلود الحيوانية فيه بمختلف أنواعها ، من أجل تحويلها لمنتوجات استهلاكية، وكما قلنا سابقا كانت موجودة بمدينة تطوان أربع دور الدباغة وهي باب المقابر والفدان والجنوي ورأس الرخامة، ولكن لم تزل منها سوى واحدة وهي تلك المتواجدة في حي باب المقابر، التي بنيت في القرن 15 الميلادي، تحد شرقا بمقابر المسلمين وغربا بشارع الخرازين، شمالا بشارع باب المقابر وجنوبا بحي الملاح البالي وبحومة البلد، تقدر مساحتها الإجمالية بحوالي 2700 متر مربع، لها مدخلان مدخل شمالي من جهة باب المقابر، ومدخل غربي من جهة الخرازين يمكن تقسيمها إلى شطرين:

دار الدباغ الفوقية التي تحد بالمدخل الشمالي.

دار الدباغ السفلية التي تحد بالمدخل الغربي.

تعتبر دار الدباغ من الفضاءات التي يحتاج العمل فيها للماء الوفير، وقنوات الصرف الصحي، ولذلك يتم تزويدها بالماء المستخلص من نظام شبكة ماء السكوندو، وقد كانت تتكون في السابق من 120 حفرة وصهريج أما الآن تتكون فقط من 41 حفرة تقسم على الشكل التالي:

القسم الأول خاص باستعمال مادة الجير.

القسم الثاني يسمى خاص باستعمال مادة النخالة وفضلات الحمام.

القسم الثالث خاص باستعمال مادة الميموزا أو الدباغ في دباغة الجلد.

[32]- القباج، عبد الإله (2005)، الصناعة التقليدية نضال وثقافة واقتصاد اجتماعي، الرباط: مطبعة المعارف الجديدة، ص60.

صورة (1): دار الدباغ بتطوان

صورة (2): عملية دباغة الجلود بمادة ميموزا

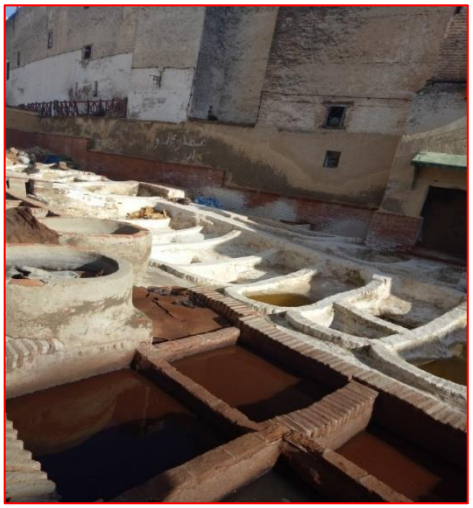

المصدر: بعدسة الطالب الباحث بتاريخ 2018/12/12

آبار دبغ الجلود 2 الجزء المتخصص في تبيض وتنظيف الجلود بمادة الجير. فيما تكشف الصورة رقم 1تبرز الصورة رقم بمادة ميموزا، والصورتان توضحان الحالة المزرية التي يعيشها فضاء دار الدبغ بتطوان من حيث نفور الحرفيين من ممارسة المهنة، وعدم توفر الشروط الصحية لممارستها.

أما طريقة التصنيع وهي العملية التي تهمنا باعتبارها مهارة وتقنية يمتلكها الحرفي التطواني في مجال دباغة الجلد، حيث تمر الجلود سواء أكانت جلد غنمي أو بقري أو معزي داخل دار الدباغ عبر عدة مراحل، حتى تصبح مدبوغة صالحة للاستعمال الحرفي على الشكل التالي:

المرحلة الأولى: يتم سل الجلود من الفضلات داخل الحفر المستطيلة الكبيرة.

المرحلة الثانية: توضع في المجاري المحتوية على الماء والجير لإزالة الشعر الملتصق بها ثم تشليلها.

المرحلة الثالثة: تنقل لترطب بالماء الممزوج بالنخالة وفضلات الحمام.

المرحلة الرابعة: تنقل لحفر أخرى حيث يتم إزالة النخالة وفضلات الحمام من الجلود.

المرحلة الخامسة: يتم دباغتها بمادة ميموزا الممزوج بالماء داخل الحفر.

المرحلة السادسة: تعرض الجلود المدبوغة لأشعة الشمس للتجفيف.

المرحلة السابعة: عملية التجبيد حيث توضع الجلدة على قطعة خشبية مثبتة في الأرض وتنقى من الزغب بقطعة حديدية حادة.

مسؤولية دار الدباغ، من صميم اختصاصات المديرية الإقليمية للصناعة التقليدية وغرفة الصناعة التقليدية لإقليم تطوان. فمن خلال البحث الميداني الذي قمنا به فقد طالها إهمال كبير، حيث تعتبر وكرا لمروجي ومتعاطي المخدرات، بل مزبلة يرمي فيها بعض الأشخاص فضلاتهم. هذا الإهمال الذي طال حرفة الدباغة بشكل كلي، حيث لم يعد بها سوى 6 حرفيين فقط يمارسون الحرفة ويعيشون وضعية معيشية صعبة جدا. وهذا ما يهدد هذا التراث الثقافي اللامادي بالزوال والاندثار.

صورة (3): عملية تصفية الجلد من الشوائب أو التجبيد

ب- صناعة البلغة

البلغة هي نعل تقليدي مغاربي، يصنع من الجلد ويرافق في غالب الأحيان باقي الملابس التقليدية المغربية. تكون البلغة غالبا أحادية اللون (أبيض، أصفر، أسود أو أحيانا أحمر)، تصميمها بسيط حيث أنه حتى ولو تم تطريزها فإن ذلك يكون بشكل خفيف. وهناك نوعان من البلغة المغربية، نوع حاد المقدمة ونوع تكون مقدمته محدودبة. واشتهرت مدينة تطوان بصناعة البلغة الذي امتد إشعاعها التجاري إلى مدن ودول عربية أخرى كمصر والجزائر. ولم تستغني عن البلغة التطوانية إلا مع بداية القرن 19 [33]، وهذا ما يؤكد جودة صناعة البلغة بمدينة تطوان وأهميتها في النسيج الحرفي في المغرب ككل. وتتركز صناعة وبيع البلغة في المدينة العتيقة بحي الخرازين في محلات تقليدية، تتراوح أثمانها بين 80 درهم و300 درهم حسب الجلد المصنوعة منه، ومدى إتقان المعلم. تأخذ صناعة البلغة من عمل المعلم يوما إلى ثلاثة أيام حسب نوعها والنقوش الموجودة بها، وتمر صناعتها بمراحل عدة على الشكل التالي:

المرحلة الأولى: تبدأ عملية تصنيع البلغة بإعداد الجلد المناسب لذلك، حيث تدبغ جلود البقر والماعز حسب الطلب، بقشور الرمان أو الزعفران، ثم تسطر عليها مقاسات باستعمال قياسات ورسومات من ورق مقوى، ثم تقطع قطع الجلد وفقا لهاته المقاسات.

المرحلة الثانية: هي مرحلة التبطين حيث يقوم الصانع في هذه المرحلة بإلصاق الوجه بالظهر والذي يسمى (Plantilla القالب) .

المرحلة الثالثة: هي التشبيك حيث يقوم الصانع بخياطة البلغة من أجل منحها تماسكا أفضل.

المرحلة الرابعة: هي مرحلة التزيين، يستخدم فيها الصانع آلة يدوية يصطلح عليها بالمسقط ليقوم بتزيين وجه البلغة وإطفاء خطوط خفيفة عليها.

المرحلة الخامسة: حيث يقوم الصانع بخياطة القفى مع الوجه بخياطة متميزة ثم ينتقل الصانع بعد ذلك إلى خياطة الوجه بالفراشة المصنوعة من جلد الغنم وذلك لنعومة ملمسها. بعد ذلك تأتي مرحلة خياطة النعل الذي يستخرج من جلد البقر.

المرحلة السادسة: آخر مراحل صنع البلغة هي وضعها في قالب خاص وهذا ما يسمى بالقرباص لتتخذ شكلا نهائي يناسب جميع الزبائن.

المرحلة السابعة: بعد انتهاء مراحل صنع البلغة يأتي الآن دور التسويق إذ يتم عبر الدلال ليسوقها من الصانع إلى البائع.

صورة (4): ورشة صناعة البلغة بالمدينة العتيقة

صورة (5): إحدى مراحل صناعة البلغة

المصدر: بعدسة الباحث بتاريخ 2018/09/08

ورشة صناعة البلغة التطوانية بحي الخرازين الذي يحتوي العديد من ورشات تصنيع البلغة، فيما تكشف الصورة رقم 4 توضح الصورة رقم 5 عملية تلصيق الجزئين السفلي والعلوي من البلغة بلصاق خاص بذلك.

[33]- الرامي خالد (2005) تطوان خلال القرن الثامن عشر تاريخ وعمران، الطبعة الأولى، تطوان: مطبعة الخليج العربي ص 60.

6-الحرف الطينية: حرفة فخار الطفالين أنموذجا

توجد في إقليم تطوان نوعان من الحرف الفخارية، الفخار البدوي، والفخار الحضري، فالفخار البدوي الريفي هو نشاط خاص بالنساء عن طريق الهواية، وهو فن منزلي يعتمد مهارات وتقنيات يدوية بسيطة تعتمد على اليد في جل المراحل، في البداية كان الإنتاج فقط من أجل الاستعمال العائلي، لكنه تطور الآن فأصبح نشاطا اقتصاديا محضا، يتم إنتاجه بجماعة واد لو جماعة بني سعيد تحديدا، وبالضبط مدشر فران علي. أما الفخار الحضري وهو الذي يهمنا باعتباره يمارس في مجال دراستنا، ينتجه الرجال في مختلف مراحله عن طريق احتراف تقنية الدواليب والمعروف بتأثره مند العصور الوسطي بأرقى الأساليب الشرقية والأندلسية، وأشكاله وغناه الزخرفي الذي يمكن تأمله بمحترفات وأسواق مختلف المدن المغربية. وتتمركز صناعة الفخار الحضري في مجال الدراسة بمنطقة الطفالين، التي تحد شرقا بحي الطويلع، وغربا بمقابر اليهود، شمالا بباب المقابر وجنوبا بحي الباربورين، وقد عرفت بجودة طينها المستعمل في كل الحرف التي لها علاقة بالصناعات الفخارية، وهو مكون من سلسيات الكلس والألومين وأوكسيد الحديد[34]، وهو يحتوي على مادة لاحمة هي السِّليكا حيث يتميز بشدة لزوجته عند البلل مما يساعد الحرفي على التحكم فيه.

تاريخياً كانت لهذه الحرفة أراضي محبسه على أهلها في عدة مناطق، كما كانت لهم أراضي بكل من حي سيدي طلحة وحي غرابو خارج باب المقابر. وكان أمين الحرفة هو نفسه ناظر أوقافها، حيث أن التنظيم الداخلي للحرفة يجعل الاستفادة من هذه الأوقاف للمعلمين القشاشين، الذين يبيعون إنتاجهم إما في وحداتهم الإنتاجية أو في سوق القش خارج باب النوادر. وقد كانت أدوات الإنتاج تتكون من لولب خشبي يديره الصانع برجله وأفران الإنضاج، كما يحتاج المعلم القشاش إلى مساعدين خلال مراحل الإنتاج وكانت الحرفة تزود السوق المحلية بمجموعة من المنتوجات الاستهلاكية، من قبيل القرمود وقواديس الماء المستعملة في شبكة السكوندو بالإضافة إلى الأواني المنزلية والتزيينية[35]. إلى جانب الزليج التطواني الذي كان يتوفر على قيمة فنية فريدة والذي يصدر نحو طنجة وشفشاون والقصر الكبير[36].

كانت توجد من هذه المحترفات الفخارية عدة ورشات يمكن إجمالها في ثمانية، ونظرا لتدهور الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية لحرفيي صناعة الفخار نتيجة للمنافسة القوية من المنتوجات الصينية والإسبانية، وأيضا الأواني الفخارية التي تصنع في مدن أخرى كآسفي مثلا بالإضافة لتأثير الأزمة الاقتصادية التي تعيشها المدينة ابتداء من سنة 2008، لم تعد سوى ورشة واحدة هي ورشة المعلم عباس الفضالي المتواجدة بالقرب من باب المقابر. حيث كانت هي مصدر جل المعلومات التي حصلنا عليها بخصوص هذه الحرفة.

يجمع الطين المستعمل في عملية الصنع من عمق 3 أو 4 أمتار، ثم ينقل إلى المعمل وينشر تحت الشمس، قبل أن يدق وينقل للصهريج الأول أو حوض التخمير حيث يخلط بماء جوفي يتجمع في برك موجودة للتخمير لمدة ليلة واحدة، ثم يصفى في الصهريج الثاني أو حوض التصفية حيث يوضع الخليط في غربال دقيق يسمى "ليسانس" وينقل منه إلى الصهريج الثالث أو حوض التجفيف وهو عبارة عن حوض مبطن لمنع تسرب المياه، ومنه يتم خلط المياه على نوعية الطين المطلوبة لكل منتج، ويأتي ذلك وفق مقادير ونسب محددة وهناك يصفى الماء من الطين. وتستمر هذه العملية أسبوعا واحدا في فصل الصيف وأسبوعين في فصل الشتاء. ثم يتم تقطيع الطين إلى قطع كبيرة، بعد ذلك تم نقله إلى ما يسمى بيت الطين، وهو يضم الاحتياطي من المادة الخام. وكلما احتاج الحرفي إلى مزيد من الطين يتم تقطيع جزء من هذا الاحتياطي. فيقوم العامل بدهسه بإحدى قدميه بالتبادل الذي يساعد في زيادة تماسك الذرات الطينة ويزيد من مرونتها، وأخيرا يتم اقتطاع جزء من هذه العجينة ودعكه باليد فوق منضدة مع إضافة الرماد بصفة مستمرة.

"مرحلة العمل على الدواليب "التورنو" التقليدي، وهيئته مكون من دائرتين من خشب مبسوط، متصلين بمحور في مركز محيطها على بعد 0.80 سنتيمترا إلى 1.00 سنتيمترا بينهما العليا منهما قطرها

---

[34]- بنونة، عبد السلام (2016)، تحفة الإخوان في الصنائع التقليدية بتطوان، تخريج وتقديم حسناء محمد داود، منشورات تطوان: مكتبة سلمى الثقافية، ص42 /43.

[35]- الرامي، خالد (2005)، تطوان خلال القرن الثامن عشر تاريخ وعمران، مرجع سابق، ص61.

[36]- القباج عبد الإله (2005)، المرجع السابق، ص60.

نحو 30/20 سنتيمترا، ولا يخترقها المحور، بل يتصل بها فقط والسفلى قطرها من 70 إلى 80 سنتيمترا، ويخترقها المحور عموديا بنقطة المركز، حتى يخرج منها لجهة الأرض نحو شبر، حاد الرأس، مغلقا بحديد، ويرتكز بحلقة حديد يمكن دورانه وسطها، ولأجل إبقائه قائما، يقبض من أعلاه تحت الدائرة الصغرى بخاتم من حديد في أخشاب متصلة بشيء ثابت على هيئة مربع، وتحريك الدوار يقع بتحريك رجل العامل فوق الدائرة السفلى، فتدور الدائرة العليا الملتصقة بالمحور، وعليها تصنع الأواني حالة دورانها المنتظم"[37].
وعن كيفية صناعة الأواني الفخارية التي تتم بعد عملية العجن للطين، فتوضع العجينة على الدائرة الخشبية التي تلف بسرعة كبيرة، ويستعمل المعلم قطع من الزليج كقاعدة للمنتوج إذا كان كبير الحجم، وتقوم اليدان بعملية التشكيل حيث تمسك بالطين وتحاول أثناء ذلك أن تصل به إلى درجة خاصة من الليونة، ومن ثم تبدأ عملية التشكيل لذلك الطين لتصنع منه المنتوجات.

بعد أن يكون الطين قد تخلص من الماء الذي يحتويه تبدأ عملية الحرق في الفرن وبعد إشعال النيران بمخلفات محالات النجارة بالمدينة، حيت يبلغ ثمن 25 كيس حوالي 150 درهما فيما يعرف ببيت النار وهي من العمليات الفنية الدقيقة حيث يتم رفع درجة الحرارة تدريجيا وببطء حتى يتبخر كل الماء. فالمرحلة الأولى تسمى فترة التعليل أو التدفئة تكون درجة حرارة الفرن فيها ما بين 600-500 درجة مئوية، ثم يتم رفع درجة الحرارة إلى الحد المطلوب لإنتاج الفخار في درجات حرارة تتراوح ما بين 800-700درجة مئوية، وقد أدرك الفخاري البدائي كل هذه الأمور عن طريق الخبرة وملاحظة التغير في اللون، وبانتهاء مرحلة الطهي يخرج الماء المتحد كيميائيا، ويتحول الطين من حالته الأولى الهشة التي يؤثر فيها الماء إلى الحالة الصلبة. وبعد توقف عملية الحرق يترك الفرن ليبرد فترة كافية ثم تفتح المدخنة العلوية فترة مناسبة بعدها تفتح الفتحات الجانبية والسفلية للفرن للسماح بدخول الهواء العادي داخل الفرن والتأكد من برودة المنتجات بلمسة اليد يمكن إخراج المنتجات، وعلى كل حال يمكن إخراج المنتوجات الفخارية بعد 24 ساعة في الأفران الصغيرة والمتوسطة. وبخصوص السيراميك يتم إعادته للفرن بعد التزيين في درجات حرق عالية تصل 1400درجة مئوية. وتتم عملية صباغة المنتوجات الفخارية بالعديد من الصباغات الخزفية التي يمكن أن يحضرها الخزاف، كما أن هناك صباغات يمكن شراؤها من المحلات الخزفية أو المكتبات التجارية الكبرى. وتوجد على هيئة سائل أو بودرة، إلا أن الصباغة الأكثر استعمالا هي المصنعة بطريقة تقليدية من شجر العرعار وتسمى القطران، ويؤكد المعلم عباس الفضالي أنه قلما يشتغل بالصباغة ويعتمد بشكل كبير على التزين بمادة القطران باعتبارها طبيعية وطريقة إنتاجها غير مكلفة.

خاتمة:

مما سبق، فيبدو لنا أن المجال التطواني شكل بالفعل مركزا حرفيا كانت له أهميته وإشعاعه محليا ووطنيا، بل كثرة الصنائع دليل على الثقل الاقتصادي للحاضرة بالنسبة للمغرب في فترات تاريخية معينة. لذلك فتحليلنا للإشكالية المتعلقة بالحرف المائية ضمن هذه الورقة البحثية جعلتنا نصل لبعض الاستنتاجات من بينها بتركيز شديد:

- فبالرغم من إحجام العديد من المؤرخين الرسميين تسليط الضوء على الحرف والحرفيين، لاعتبارات قد تكون مرتبطة بأن الحرفيين يصنفون ضمن خانة ذوي التفكير الساذج والقدرات العقلية المحدودة، فإنها شكلت بالفترة المعاصرة ومن خلال أدوارها طرفا محوريا بالخريطة الاقتصادية للمجال التطواني، ومصدرا لمعيشة نسبة كبيرة من عناصر وشرائح مجتمع المنطقة.
- عبر التقصي الميداني يتضح لنا أنه جرت العادة في مركز المجال التطواني أن يطلق على الشوارع والزنقات أسماء بعض الحرف والمهن التي تشغلها، وبالتالي تركت بعض الطوائف الحرفية بالذات بصمات واضحة في الأحياء التي توزعت فيها صناعة معينة أو حرفة ما، إلى حد إطلاق اسم المكان على اسم الصنعة، كحي الخرازين، والدباغين، والطرافين،

[37]- بنونة عبد السلام (2016) المصدر السابق، ص43.

والقصدارين، والنيارين، والطفالين، والتي لازالت قائمة إلى يومنا هذا.

- تقتضي عملية التمييز بين أصناف الحرف المائية التي توطنت بالحاضرة ونواحيها ضرورة الإحاطة بكافة المادة المصدرية وبذل جهود في التقصي الميداني، ولذلك يمكن التأكيد أن شريحة الحرفيين التي وجدت بالفضاء التطواني تخصصت من حيث الوظيفة في صنائع ترتبط بالإنتاج، وأخرى في الخدمات، وبعضها في التسويق.
- يتبين لنا أن دمج الإرث التاريخي المرتبط بالحرف عموما والمائية خاصة، يتطلب مقاربات تنموية تركز على استحضار الذاكرة التاريخية للمجتمع التطواني، واستثمارها في مشاريع اقتصادية واجتماعية تكون قاطرة التحول عبر ربط الماضي بمستجدات الحاضر ومتطلباته.
- رغم ما لعبته الحرف في تاريخ المدينة فإن تطورها ونموها اليوم ليس بالمستوى المطلوب رغم الوعود التي يرفعها المسؤولين، ففي كثير من المشاهد التي تتعلق بأحياء حرفية قديمة مثلا، وجدنا حجم الإهمال كبير لا يتماشى مع تلك التوجهات ودفتر التحملات التي تحرص على حفظ الذاكرة التاريخية لتطوان العتيقة بالذات أثناء تنزيل المشاريع التنموية.

لذلك نوصي كل الباحثين المهتمين بتاريخ المدينة، وأصحاب القرار والمؤسسات الاقتصادية بضرورة تثمين الموروث الحضاري أولا حفظا للهوية المتوسطية للحاضرة من الاندثار، وثانيا لا يمكن تحقيق تنمية ثقافية ذات صيت وطني ودولي دون استثمار هذا الإرث المتنوع في جذوره، ومسمياته، وتفاعلاته التي امتدت لقرون ولازالت بقاياه شاهدة على دورها في تميز وتشكيل ذاتية وهوية المجتمع التطواني.

المصادر والمراجع:

1. حوالة زاوية أبي جيدة (وثيقة) بتاريخ 1214ه/ 1799م، بمندوبية الأوقاف بتطوان.
2. ابن عجيبة، أحمد (2013)، فهرسة العالم الرباني الكبير. تقديم وإعداد، عبد السلام العمراني الخالدي العرائشي، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية.
3. اجميلي، حميد (اكتوبر 2018)، المسألة الديموغرافية بالمغرب الأقصى، مؤشرات إحصائية حول الاقتصاد والتمدين خلال العصر الوسيط ق 6-8ه/12 – 14م. الدار البيضاء: منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة.
4. الأندلسي، نضار (2020)، تطوان بين المغرب والأندلس، تشكيل مجتمع مغربي أندلسي في القرنين 16 و17.ط1، تطوان: منشورات جمعية دار النقسيس للثقافة والتراث بتطوان.
5. البقالي محمد عبد الحفيظ (بدون تاريخ طبع)، سمسة، ذكريات من تاريخ قرية. دون اسم مؤسسة الطبع والنشر.
6. بنونة عبد السلام (2016) تحفة الإخوان في الصنائع التقليدية بتطوان، تخريج وتقديم حسناء محمد داود، منشورات مكتبة سلمى الثقافية.
7. داود حسناء (2019) تطوان: سمات وملامح من الحياة الاجتماعية، منشورات مؤسسة محمد داوود للتاريخ والثقافة، مطبعة الخليج العربي، الطبعة الأولى.
8. داود محمد (2010) تاريخ تطوان، المجلد الثاني، منشورات جمعية تطاون أسمير.
9. داود محمد، التكملة ذيل لكتاب تاريخ تطوان في خطط المدينة وسكانها وحياتها الاجتماعية. مراجعة وتحقيق وإضافات، حسناء داود، منشورات جمعية تطاون أسمير، ط1، تطوان: مطبعة الخليج العربي.
10. الرامي خالد (2005) تطوان خلال القرن الثامن عشر تاريخ وعمران، الطبعة الأولى، مطبعة الخليج العربي.
11. الرامي، خالد (2008)، النظام الأصيل لتوزيع الماء بمدينة تطوان 1862-1913. تطوان: منشورات جمعية تطوان أسمير، مطبعة الخليج العربي.
12. الرهوني أبو العباس أحمد، عمدة الراوين في تاريخ تطاوين. تحقيق جعفر بن الحاج السلمي، ط2، تطوان: منشورات جمعية تطاون أسمير، مطبعة الخليج العربي تطوان ج3.
13. السعود عبد العزيز (1996)، تطوان خلال القرن التاسع عشر، منشورات جمعية تطاون أسمير، تطوان: مطبعة الخليج العربي.
14. السعود عبد العزيز (2009)، "معطيات ديمغرافية وإثنية عن تطوان في القرنين 18 و19"، ضمن: المجتمع التطواني والتطور العمراني والمعماري" تنسيق امحمد بن عبود، مجموعة البحث في التاريخ المغربي والأندلسي، سلسلة أعمال الندوات 15 و16، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة عبد المالك السعدي، تطوان، الطبعة الأولى، تطوان: مطبعة الخليج العربي.
15. القباج عبد الإله (2005) الصناعة التقليدية نضال وثقافة واقتصاد اجتماعي. الرباط: مطبعة المعارف الجديدة.
16. لقبايبي توفيق محمد (2020)، حرف الماء في تاريخ المغرب، بين التأصيل والتجديد. دراسة في تاريخ نماذج من

الحرف المائية. مؤسسة آفاق للدراسات والنشر والاتصال، ط1، مراكش: المطبعة والوراقة الوطنية.
17. الأجنبية:
18. Don Luis Martinez, Mateo (Junio 1949), Tetuan, (evocacion sentimental), Tétuan: Imprenta del Majzen.
19. Joly, A (1906), l'industrie à Tétouan. Paris, Archives Marocaines, V 08.
20. Anonimo (1860), Brève Escursion por el Imperio de Marruecos, en que se describe su territorio y las costumbres de sus habitantes, Málaga: Imprenta del avisador Malagueño.